اسم الدرس: تفسير سورة الأنعام | ح ١٧ | الآيات [١٠٨ : ١١٣]

تصنيف الدرس: مجلس تفسير

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عز وجل- ما بدأناه في تفسير سورة الأنعام، كنا توقفنا عند ختام الآية في قول الله -عز وجل-: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الانعام ١٠٨). ذكرنا خلاف العلماء في توجيه قول الله -عز وجل-: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْم} (الانعام ١٠٨).

وتحدثنا في مسألة السبب، وهل الأصل أن هذه طاعة سيترتب عنها مفسدة، والمفسدة تصبح أقوى من المصلحة فتترك المصلحة خشية ارتكاب المفسدة الأعظم؟ أم أن أساسًا هذا شيء من المفترض ألا يحدث حتى لو لم يترتب عليه مفاسد، وأن المؤمن -كما نقل بعض العلماء- لا ينبغي عليه أن ينشغل بهذه الأمور، وما لا فائدة له وما لا يترتب عليه الأعمال. وأفرد الإمام القاسمي بعض أقوال العلماء في الباب، وغيره عمل أبحاث مثل الإمام ابن عاشور والإمام رشيد رضا، وغيرهم حاول يوجه الآيات كل التوجيهات الموجودة وأفرد للمسألة بابًا وضح فيه توجيه العلماء لهذه الآية.

والآن نكمل الآية {كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الانعام ١٠٨). الله -عز وجل- يعقب في ختام هذه الآية أن الذين يسبون الله -تعالى الله -عز وجل- عما يقولون- عَدْوًا بغير علم، هؤلاء يعترفون أن هذا الإله هو خالقهم، وهو رازقهم، وهو الذي أنعم عليهم، وأنهم ما عبدوا الأصنام إلا ليقربوهم إلي الله، لكن عندما يضيق به النقاش وأثناء المحاجة -قلنا هذا التعصب- مثل مالك بن الصيفي في آية {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} (الانعام ٩١)، أنه من الممكن إذا ضُيق عليه أن يَكْفُر بمنهجه.

ففي آية {مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} (الانعام ٩١)، في أحد الأقوال؛ أن يهودي أنكر التوراة عندما ضاق به النقاش مع النبي -صلى الله عليه وسلم-... وهنا كافر مشرك سبَّ الله -عز وجل-، في حين أنه يعترف أن الله -عز وجل- هو رازقه بسبب أيضًا أن الآيات كانت متتالية في إثبات قدرة الله -عز وجل-، فشعر أن آلهته وعصبيته وحميته لقبيلته وآلهته تُهان، فانفجر وكفر، ولم يكفر فقط بمبدئه، لكنه يسب المنهج الذي كان عليه. وقلنا إن العصبية في النقاش ليست فقط من الممكن أن تجعل

الإنسان يتنصل من معتقده، وإنما أيضًا تجعل الإنسان يسُب المعتقد الذي كان عليه ليس فقط أن يكفر به.

مثل اليهود عندما قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما تقولون في عبد الله بن سلام، قالوا سيدنا وابن سيدنا فلما أعلن وأشهر إسلامه قالوا سفيهنا)[1]، فالذي كانوا يمدحونه سابقًا، أصبحوا الآن ليسوا فقط يتنكرون له بل أيضا يسبوه... فهنا سبوا الله -عز وجل- عدوًا بغير علم.

كيف وصلوا لهذه المرحلة؟

يُعقب الله -عز وجل- يقول: {كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} (الانعام ١٠٨)، هنا الأمر خطير جدًّا؛ أن الله عز وجل -والفعل منسوب إليه سبحانه وتعالى- زيَّن لهم الباطل فأصبح يدافع ويقاتل ويناضل عن شيء يظنه الحق؛ مثلاً نجد أحدًا يموت في سبيل الباطل، ويقاتل ويدفع الأموال في سبيل هذا الباطل، هذا مُزيَّن له. كما هو في أحد توجيهات قول الله -عز وجل-: {عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ} (الغاشية ٣)، أي: عاملة مجتهدة في الدنيا لكن في سبيل الباطل، فهي ناصبة في جهنم والعياذ بالله يوم القيامة. وهذا يعني أن الله -عز وجل- يزين لبعض الناس الباطل فيظن أنه علي الحق {كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} (الانعام ١٠٨).

متى يحدث هذا التزيين؟

هذه سنة من سنن الله -سبحانه وتعالى- في معاملة الخلق، مثل قول الله -عز وجل-: {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥)، ماذا تعني {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥)؟ أي أن الله -عز وجل- يجعل أقرب الأمور إليه وأسهلها التي اختارها هو، أي أنه من الممكن أن يسهل الله له طريق الضلال.

---

[1] ١- [عن أنس بن مالك:] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قدِمَ المدينةَ وعبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ في نخلٍ له فأتى عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: إنِّي سائِلُكَ عن أشياءَ لا يعلَمُها إلَّا نَبيٌّ فإنْ أنتَ أخبَرْتَني بها آمَنْتُ بكَ فسألَه عنِ الشَّبهِ وعن أوَّلِ شيءٍ يحشُرُ النَّاسَ وعن أوَّلِ شيءٍ يأكُلُه أهلُ الجنَّةِ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (أخبَرَني بهنَّ جبريلُ آنفًا) قال: ذاكَ عدوُّ اليهودِ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: (أمَّا الشَّبهُ إذا سبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المرأةِ ذهَبَ بالشَّبهِ وإذا سبَقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرَّجُلِ ذهَبَ بالشَّبهِ وأوَّلُ شيءٍ يحشُرُ النَّاسَ نارٌ تجيءُ مِن قِبَلِ المَشرِقِ فتحشُرُ النَّاسَ إلى المَغرِبِ وأوَّلُ شيءٍ يأكُلُه أهلُ الجنَّةِ رأسُ ثَورٍ وكَبِدُ حُوتٍ) ثمَّ قال: يا رسولَ اللهِ إنَّ اليهودَ قومٌ بُهُتٌ وإنَّهم إن سمِعوا بإيماني بكَ بَهَتوني ووقَعوا فيَّ فأُحِبُّ أنِّي أبعَثُ إليهم فبعَثَ فجاؤوا فقال: (ما عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ)؟ قالوا: سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا وعالِمُنا وابنُ عالِمِنا وخيِّرُنا وابنُ خيِّرِنا فقال ﷺ: (أرأيتُم إنْ أسلَمَ أتُسلِمونَ؟) فقالوا: أعاذَه اللهُ أنْ يقولَ ذلكَ ما كانَ لِيفعَلَ فقال: (اخرُجْ يا ابنَ سَلامٍ) فخرَجَ إليهم فقال: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ فقالوا: بل هو شرُّنا وابنُ شرِّنا وجاهِلُنا وابنُ جاهِلِنا قال: ألَمْ أُخبِرْكَ يا رسولَ اللهِ أنَّهم قومٌ بُهُتٌ!
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٤٢٣ • أخرجه في صحيحه

معقول من الممكن أن يسهل الله له طريق الضلال؟! نعم مثل قول الله –عز وجل–: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)} (الليل)، قيل العسرى: جهنم، وهذا يعني أن طريقه لجهنم سيكون مُعبدا سهلا سريعًا، سيكون طريقًا سهلاً، معصية تعقبها معصية يَمُد الله –عزّ وجل– له في الضلال. تخيل!

متى يحدث هذا؟ عندما نرجع للآيتين: {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥)، وآية {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل ١٠)، تجد أن آية {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥) نصها هو {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥)، انتبه لكلمة {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ} (النساء ١١٥)، وهنا التزيين جاء بعد {قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ} (الانعام ١٠٤).

وآية {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠)} (الليل) جاء بعدها {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} (الليل ١٢)، سياق الآيات: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧)وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(١٢)}(الليل)

إن الله أوجب على نفسه –سبحانه وتعالى– أن يرسل الرسل لتبين للناس الهدى، وبعد أن تتضح وتظهر له الأمور؛ المرء هو من يختار طريق الضلال، الله –عز وجل– يسهل له اختيار طريق الضلال {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} (التوبة ١١٥) هذا الضلال؛ أي أن الله قبل أن يضل العبد، يفعل معه شيئين:

أولاً: يهديه لطريق الحق،

ثانيا: يعرفه أين طريق الضلال كي لا يسير فيه {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ} (التوبة ١١٥) أي: يُعرفه طريق الحق {حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ} (التوبة ١١٥)، أي: يُعرفهم طريق الضلال.

فربنا يقول إن طريق الحق هو الهدي، ويقول احذر هذه الطرق تؤدي إلى الضلال، ثم يتركه يختار على بينة {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ} (الانفال ٤٢) أي: يختار طريق الضلال على بينة. وقتها {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ} (النساء ١١٥)، {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل ١٠)، {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ} (النمل ٤).

فيكون سائر في الطريق ويظل يدافع ويناضل يظن أنه على الحق، كذب كذبة وصدقها؛ لأن الحق تبين له وأعرض عنه.

كما قال سبحانه {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} (الانعام ١١٠) لماذا يصرفه الله عن الآيات رغم أنها واضحة للبصر وللقلب؟ {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} (الانعام ١١٠) لأن أول مرة كانت واضحة ورفض أن يختارها، لذلك خطورة الإعراض عن الحق أنه من الممكن حينما تعرض عنه مرة واثنين وثلاثة؛ أن يختم الله على قلبك فلم تعد تراه مرة أخرى. لذلك ندعو "اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه" فمن الممكن أن يرى المرء الحق باطلاً..."وأرنا الباطل باطلاً" أي أن بعضهم يرى الباطل حق، وأنت تطلب من الله –عز وجل– أن يضبط لك الرؤية، "أرنا الحق حقًّا" فأنت تطلب من الله –سبحانه وتعالى– أن يريك الأشياء على حقيقتها حتى لا تضل، فهذه هي خطورة {كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم} (الانعام ١١٠) يوم المفاجآت يكتشف أنه كان يدافع عن ضلال.

قلنا إن من المعاني الرئيسية في سورة الأنعام استنقاذ الغرقى من المستضعفين الذين يسيرون خلف كلام الرؤساء، الأكابر الرؤساء المتبوعون خدعوا المستضعفين في السورة. وكثير من سور القرآن هكذا، تأتي سور القرآن لتستنقذ هؤلاء وتُفيقهم من هذه الغفلة، لذلك ربنا يقول أيضا في هذه السورة: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا} (الانعام ١٢٣)...{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ} (الانعام ١١٢)، هناك دائمًا أكابر، هناك رؤساء، هناك شياطين، هناك مردة يخدعون الناس يقولون زخرف القول، كما سيأتي معنا في الآيات، فالناس يُلبس عليهم، يُخدعون، فتأتي آيات القرآن تستنقذ هؤلاء وتُبين لهم قبل أن يأتي يوم القيامة {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} (البقرة ١٦٦).

و كما ذكرنا في قوله تعالى {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} (الانعام ٩٤) وفي قراءة {بَيْنُكُم} (الانعام ٢٤) كل العلاقات ستنقطع، فهؤلاء الضعفاء الذين تبين لهم الحق وأعرضوا عنه ووضعوا الكُرسف –القطن– في آذانهم، ورفضوا أن يسمعوا النبي –صلى الله عليه وسلم– ورفضوا أن يتفكروا في آيات الله، والنبي –صلى الله عليه وسلم– نصحهم أن يبتعدوا عن هذا المجتمع الغوغائي، ويجلس كل منهم بمفرده يفكر {قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ

لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)} (سبا) ، ولا أريد أي شيء منكم {قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّه} (سبا ٤٧).

إذًا فالذين ظلوا سائرين هكذا ورفضوا، يأتي يوم القيامة يتحسر ويقول: كل هذه الأيام كانت على ضلال!، كل البذل الذي بذلته والمال والقتال! {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ} (النساء ٧٦) هؤلاء يبذلون لكن في سبيل الطاغوت. هناك مِن الناس مَن يصرف الملايين لنصرة الضلال ويؤدي إلى موت آخرين.

كثير من الإخوة المجاهدين في سوريا يقصون أنه قد يكون أمامه في الجيش رجل يُفجر نفسه وهو يقول يا حُسين ويقتل نفسه! ضل لدرجة أنه يضحي في سبيل الضلال، مُزين له؛ لأن الحق تبين له وأعرض عنه، هذه هي الخطورة أن يكون الحق أمامك وترفضه، سواء ترفضه نفسيا أو تظن أن الوقت ليس مناسبًا لك الآن للالتزام، أو أنك غير مُتقبل مَن يَعرض عليك الحق.

تخيل حينما يكون أحد أغنياء قريش يريد أن يُسلم، ويُفاجأ أن أغلب المسلمين فقراء –سأجلس وسط هؤلاء–؟! فأيًّا كان السبب الذي يجعلك ترفض الحق لا تأمن على قلبك؛ لأن أحيانًا هناك عقوبات شديدة {وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)} (التوبة).

ماذا تقول الآية التي تليها مباشرة؟ {فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَه} (التوبة ٧٧) لماذا كانت هذه العقوبة؟ لأن الصورة كانت واضحة، وآتاه الله من فضله فبخل وأعرض، فيأتي العقاب بأن يصرفه الله عن الحق –نعوذ بالله من ذلك– (((أخطر عقوبة هي عقوبة تزيين الباطل))) –نسأل الله العافية.

{قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا} (مريم ٧٥). أسوأ عقوبة هي أن يُمَد للمرء في الضلال، مصيبة أن المرء ينافح ويقاتل ويبذل وهو يظن أنه على الحق {يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} (الكهف ١٠٤)، آخر سورة الكهف التي تمتلئ بالفتن، وأخطر فتنة هي فتنة الدجال الذي يظن أنه على حق. لذلك لا بد أن يكون الإنسان مفتقرًا إلى الله... كما قال شيخ الإسلام: "أنه قد يكون الإنسان ذكي جدًّا ولديه من المواهب الخير الكثير، وأعطاه الله مواهب عقلية عظيمة، وتجده تخفَى عليه أدلة في الحق وهي واضحة جدًّا، وعلى الجانب الآخر رجل بسيط وفهمه بسيط وفقير تجده يُهدى إلى الحق". القضية ليست ذكاء ولا مال؛ القضية من عند الله؛ هداية.

أسوأ عقوبة، هي عقوبة تزيين الضلال.

النبي -صلى الله عليه وسلم- في قيام الليل يقول: (اهدني لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنك)[٢]، أمر ضخم لا بد أن يَشْغَل من عقولنا ودعائنا وخوفنا ورجائنا حيز ضخم، أن تخاف -عياذًا بالله- أن يُزين لك الباطل. حتى إنه ممكن يسُب الله دفاعًا عن عصبيته وقبيلته وآلهته! خطورة التزيين. لذلك رؤية الفتنة -نكرر دائمًا- أن رؤية الفتنة على حقيقتها تحتاج إلى إيمان.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول على كلمة كافر الواضحة والمكتوبة على جبين الدجال، يقرؤها كل مؤمن، كاتب وغير كاتب[٣]. القضية ليست معلومات، أو ذكاء، أو فهم، لا؛ القضية قضية إيمان. إذًا قراءة الفتنة تحتاج إلى إيمان، هذه قاعدة مهمة جدا، يقرؤها كل مؤمن. قراءة الفتنة على حقيقتها تحتاج إلى إيمان، كم من أذكياء سيسيرون خلف الدجال!

أحيانًا يكون هناك برنامج سخيف جدًّا ويتحدث عن تفاهات وضلالات لا تخفى على الأطفال الصغار، وتجد عقول مثلاً أساتذة جامعة يتابعونه، فأنت تستغرب كيف استطاع هذا أن يخدع ذاك؟!

فالأمر يحتاج إلى إيمان {كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الانعام ١٠٨). النبأ هو الأمر العظيم، يفاجَأ أنه كان يسير خطأ، يفاجأ أنه قد ضيع نفسه.

ومن المعاني الجميلة التي قيلت في تفسير هذه الآية قول الإمام أبو السعود: "أن الله -عز وجل- لم يقل هنا فيُنبؤهم عاقبة ما كانوا يعملون"، بل أن الله -عز وجل- سيُخبرهم فقط بالأعمال التي عملوها، مثلاً شخص سرق يقول له أنت سرقت، حسنًا ما الصدمة في ذلك؟

فالإمام أبو السعود يقول معنى لطيف وهو أن هذه الدنيا لا تظهر فيها الأشياء على حقيقتها لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات)، فتظهر أحيانًا الطاعات

---

[٢] [عن عائشة أم المؤمنين:] حدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عَوْفٍ، قالَ: سَأَلْتُ عائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ، بأَيِّ شيءٍ كانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلاتَهُ إذا قامَ مِنَ اللَّيْلِ؟ قالَتْ: كانَ إذا قامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرائِيلَ، وَمِيكائِيلَ، وإسْرافِيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرْضِ، عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بيْنَ عِبادِكَ فِيما كانُوا فيه يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِما اخْتُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِكَ، إنَّكَ تَهْدِي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٧٧٠ • [صحيح]

[٣] [عن أنس بن مالك:] إنَّ الدجّالَ أعْوَرُ، وإنَّ ربَّكم ليس بأعْوَرَ، بيْن عَيْنَيهِ: ك ف ر، يَقْرؤه كلُّ مؤمنٍ، قارئٍ وغيْرِ قارئٍ. وقد قال حَمّادٌ أيضًا: مَكتوبٌ بيْن عَيْنَيهِ.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٣٦٢١ • إسناده صحيح على شرط مسلم

على أنها أمر ثقيل، وتظهر أحيانًا المعاصي بالنسبة للناس على أنها أمر مُزَين ومحبوب، لكن يوم القيامة كل شيء يظهر على حقيقته؛ فالصلاة تأخذ النور، تأخذ الشكل الطبيعي الذي أراده الله -عز وجل-، الأعمال تأخذ التوصيف الحقيقي لها، والمعاصي تأخذ الشكل المنفر لها، فعندما يأتي يوم القيامة يظهر كل شيء على حقيقته.

فبمجرد أن يقول له الله أنت فعلت كذا -هو يعرف قبح هذه الأشياء- يظهر قبح الدنيا، كل شيء يظهر على حقيقته، لذلك القرآن عندما يُنفر من شيء يذكره في أبشع صورة، مثلاً الذين يأكلون أموال اليتامى، قال تعالى: {إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا} (النساء ١٠).

لم يقل يأكلون مالاً سوف يكون عاقبته يوم القيامة نارًا، وإنما هذه الأموال هي نارًا حقيقة لكن لا يُؤمن بذلك إلا أهل الإيمان؛ هم فقط من يعرفون عاقبة هذه المعاصي ويرونها على حقيقتها.

كثير من الناس سيُصدمون حين يكتشفون أن حياتهم ضاعت في الطريق الخطأ، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} (الانعام ١١٦) صدمات غير عادية يوم القيامة، مفاجآت، أُناس كانوا يظنون أنهم يُحسنون صنعًا، فإذا بهم يُصدمون يوم القيامة، لماذا؟ لأنهم أعرضوا عن البصائر.

إذًا "التزيين، ونوله ما تولى، ونيسره للعسرى"، كل هذا يأتي بعد التبيين ثم الإعراض عن التبيين فيأتي التزيين، لذلك أهل السنة أثبتوا أن الله -عز وجل- يُضل بعض الناس الذين اختاروا طريق الضلال بعد أن بيَّن الله -عز وجل- لهم طريق الهدى. وهناك بعض من تحرَّجوا من هذا الوصف مثل المعتزلة؛ قالوا: لا يصح أن ننسب هذا الوصف لله -عز وجل-، نقول لهم: هذا هو العدل، الله -عز وجل- أمهله مرة ومرتين وثلاثة، الآيات واضحة أمامه وهو يصر أن يختار طريق الضلال، فيدعه الله -عز وجل- يمشي في الطريق الذي اختاره لنفسه.

وهناك من حاول تفسير الآية بشكل آخر فقال: إن الله -عز وجل- زين لهم الأعمال الصالحة ولكنهم أصروا على الضلال، فهنا التزيين هو تزيين الطاعات وأنهم اختاروا المعاصي بالرغم من قبحها، ومن قال بذلك يريد أن يهرب من القول بأن الله -عز وجل- يزين الضلال للناس، لكن نقول إنه هو من اختار طريق الضلال فيسر الله -عز وجل- له طريق المعصية.

لذلك إياك أن تُسئ الظن بربك، مثلاً يأتي من يقول لك إن فلانًا مات فجأة على معصية ولم يفعلها قط من قبل، لا تصدقه وأحسن الظن بربك، لا بد أن توقن أن الله -عز وجل- بيَّن له أنه على خطأ، لا بد أن تثق في القرآن وتصدق كلام ربك، لا بد أن يكون لديك ثقة في معاملة الله عز وجل لعباده؛ الله -عز وجل- لا يظلم أحدًا أبدًا. وبهذا الفهم لا نحتاج إلى تأويل الآيات.

بعد كل هذه البصائر، وبعد كل البينات الواضحة بعد كل هذا مازال هناك أُناس يسيئون الظن بخالقهم ورازقهم ومدبر أمرهم {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} (الانعام ١٠٩).

بعد كل الآيات التي وردت من أول السورة يطلبون آية، شيء عجيب!

يقولون: لو جاءت آية واحدة فقط سنكون أسرع الناس إلى الإيمان، ليس هذا فقط بل يحلفون ويُقسمون بالله ويكررون القسم، حتى إن بعض العلماء قال: {جهد أيمانهم} (الانعام ١٠٩) مضاف إلى الفاعل، (اليمين) فاعل؛ أي أنه من كثرة هذه الأيمان، هذه الأيمان أتعبته من شدة المجهود المبذول فيها، تراه هكذا فتظن أنه صادق.

لكنه يحدد: أريد آية حسية، لا يريد آيات القرآن، تقول له: ألم تر مصارع القوم الظالمين من أول السورة! والسماوات والأرض، ورأيت بالآيات البينة الفرق بين فعل الإنسان وبين خلق الله، وأن فلق الحب والنوى لا يفعلها إلا الله، وأن تسيير الشمس والقمر والنجوم لا يفعله إلا الله، والذي يُخرج الثمرات من الطين هو الله، رأيت آيات حسية وآيات معنوية، وتحديناك بالقرآن ولا زلت تطلب آية!

وانظر إلى الكلام بصيغة النكرة {آية} (الانعام ١٠٩) كأنه يقول ائتوني بأي آية وأنا سأؤمن فورًا، ويُقسم بذلك. فكيف يكون التعامل مع أمثال هذا وكيف يكون الرد عليه؟ هذا لا تضيع وقتك معه.

{قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ} (الانعام ١٠٩) هل الخطاب هنا خطاب للمسلمين أم خطاب للمشركين؟ قل: أي يا محمد...

كثير من المفسرين قالوا إن الخطاب هنا التفات للمسلمين، لماذا؟ لأن المشركين عندما أقسموا بعض المسلمين صدقوهم فتمنوا أن يجعل الله -عز وجل- آية بينة، بعض المسلمين تمنى آية؛ مثل أن يجعل الله -عز وجل- جبل الصفا ذهبًا، أو أن يُنزل الله -عز وجل- على النبي -صلى الله عليه وسلم- عصا مثل عصا موسى -عليه السلام - يضرب بها البحر، بعض المسلمين تمنى من شدة حرصه على إيمان

قومه أن تأتيهم آية كما يطلبون، قال: ربما يريدون فعلاً أن يؤمنوا، ربما مشكلتهم فقط في الآية- ظنوا ذلك- فالنبي -صلى الله عليه وسلم- التفت للمسلمين وأمره الله -عز وجل- أن يقول لهم إن الآيات كثيرة عند الله -عز وجل- وإن القضية ليست في الآيات.

{وَمَا يُشْعِرُكُمْ} (الانعام ١٠٩) -أي أيها المؤمنون- {أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الانعام ١٠٩)، أنت ما أدراك أنه سيؤمن عندما تأتيه الآية؟ {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الانعام ١٠٩) هذا ستأتيه الآية ويظل كما هو؛ لا يؤمن!

أحيانًا الإنسان -وهذه نقطة هامة لا بد أن تفهمها- أن كثيرا من المعارضين مشكلته ليست في الآية، وإنما مشكلته في نفسه وفي هواه، الآيات واضحة وقد أتت سورة الأنعام بنموذج سيدنا إبراهيم -عليه السلام- سواء ناظرا او مناظرا- كما ذكرنا في تفسيرها-في مسألة من أبسط المسائل ومن أوضح الآيات؛ وهي حركة القمر والنجوم والشمس التي تدل على الله -عز وجل-، أبسط الآيات، الراغب في الوصول، الخائف من المستقبل الأُخروي {يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} (الانعام ٩٢) هؤلاء فقط من سيتأثر بالآيات. {وَذَكِّر بِهِۦٓ أَن تُبسَلَ نَفسُ بِمَا كَسَبَت} (الانعام ٧٠)، {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ} (الانعام ١١٣)، {وَٱلَّذِينَ يُؤمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤمِنُونَ بِهِۦ} (الانعام ٩٢).كل هذا ورد في سورة الأنعام... وكان العامل الرئيسي لإنكارهم أنهم لا يخافون من الآخرة؛ من يخاف الآخرة هو الذي سيبحث عن الآيات، هو الذي سيبحث عن الحق، وهو الذي سيصل بإذن الله، وأما من يتبع الأهواء والشهوات فمهما أتت له من آيات حتى لو رُفعوا في السماء وكُشف لهم عن كل شيء فيها سيقولون: {إِنَّمَا سُكِّرَت أَبصَٰرُنَا بَل نَحنُ قَوم مَّسحُورُونَ} (الحجر ١٥)، مهما تفعل له فكما هرب من أول آية سيهرب من الثانية وهكذا.

القول الثاني: بأن هذا الخطاب للمشركين، الله -عز وجل- يقول للنبي -صلى الله عليه وسلم- قل لهم إن الآيات ليست عندك، وإنما هي عند الله -سبحانه وتعالى- {إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ} (الانعام ١٠٩) أي أن الله -عز وجل- لو أراد أن يُنزل لكم آية سينزلها، ولو لم يرد الله -عز وجل- فلن يستطيع أحد إنزالها... فأعرض عنهم.

ولو كان الخطاب للمسلمين فهناك لفتة عجيبة فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يرد على من طلبوا آية، وإنما التفت للمسلمين وقال لهم: انتبهوا هذا لن يؤمن حتى لو أتته آية.

تخيل معي السياق؛ مجموعة من المشركين يأتون إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسمون أنهم سيؤمنون لو أتتهم آية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يعرض عنهم ويلتفت للمسلمين ويقول: إياكم أن تظنوا أن مشكلتهم في الآيات.

لماذا أتى السياق كذلك؟ لأن الله -عز وجل- قال: {جاءكم بصائر} (الانعام ١٠٤)، ليست آية واحدة وإنما بصائر واضحة مثل الشمس، فمن أعرض عن كل هذا بعد مئة آية أو أكثر من سورة الأنعام لن يؤثر فيه شيء، فلا تتعب نفسك معه، لذلك يقول الله -عز وجل-: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ} (الانعام ١٠٩) -أي أيها المؤمنون- {أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الانعام ١٠٩).

هذه الآية توقف عندها المفسرون، شعروا أن هناك إشكال، فقالوا: سياق الآية أن تأتي" وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون"، بمعنى ما الذي أدراكم أنها لو جاءت سيؤمنون، فاستفاضوا في هذا الأمر وبعضهم قال إن (لا) هذه زائدة.

هناك قراءتين لهذه الآية، الأولى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الانعام ١٠٩). فقراءة (إنها) (الانعام ١٠٩) هذه واضحة ستقول: {وما يشعركم} (الانعام ١٠٩) وتقف، ثم تقول: {إنها إذا جاءت لا يؤمنون} (الانعام ١٠٩)؛ فيكون استئناف.

أما على قراءة{أنها} (الانعام ١٠٩)؛ قالوا: هناك فارق بين العتاب وبين التماس العذر، عندما تريد أن تعاتب أحدًا تقول له أنت ما أدراك أن فلانًا لن يأتي، هذا يختلف عن قولك له أنا ألتمس لك العذر حين ظننت أن فلانًا لن يأتي. فهنا بالنسبة للمؤمنين هو التماس للعذر أنهم كانوا يظنون أن المشركين يمكن أن يتوبوا أو يؤمنوا...فيكون معنى{وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون} (الانعام ١٠٩) أي: الله يقول للمؤمنين: ليس عندكم أي علم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، أنتم فعلاً لم تتوقعوا أن هذا ما سيحدث لكني أعلم، فمعنى الآية وما يشعركم أيها المؤمنون أن هذه الآيات إذا جاءت إلى المشركين أنهم لا يؤمنون، أي: أنتم لستم تعلمون ذلك ولكني أنا أعلم، فربنا -سبحانه وتعالى- يعطي عذرًا لأهل الإيمان في طلبهم لهذا الطلب من النبي -صلى الله عليه وسلم-، حيث طلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يستجيب للمشركين ويدعو الله -عز وجل- أن ينزل لهم آية.

أيا كان فالعلماء حاولوا الخروج من هذا الإشكال، فالإمام ابن عاشور أورد كلامًا طيبًا في محاولة للخروج من هذا الخلاف، والإمام ابن المنير على حاشية الكشاف أيضًا وهؤلاء من أكثر مَن حاولوا أن يخرجوا

من الخلاف، لكن نحن نترك الآية على ظاهرها، فلن نقول (لا) زائدة، ولكن نقول إن معنى الآية: أيها المؤمنون أنتم لا تدرون الأسباب التي تجعل أهل الإشراك لا يؤمنون، ليس عندكم علم بهذا.

وفي التفسير القرآني لعبد الكريم الخطيب يقول: أنتم تعاملكم معهم مجرد مشاعر لكن ليس عندكم علم بالغيب ولا بالباطن وليس عندكم بينات. لذلك الإنسان عندما تقوده مشاعره في الدعوة يمكن أن يتصرف تصرفات خاطئة، هناك فارق بين الدعوة على علم والدعوة بالمشاعر؛ الدعوة بالمشاعر يمكن أن تجعل الإنسان يغير في حقائق عنده من أجل الناس، وهذا ما يستغله الشيطان كما ذكرنا في قوله تعالى {وَمَآ أَرسَلنَا مِن قَبلِكَ مِن رَّسُول وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ} (الحج ٥٢) وتكلمنا عن هذا المعنى باستفاضة في خطبة الأماني المهلكة؛ أن الشيطان لو سيطر على مشاعرك وأمانيك يمكن أن يقودك إلى أشياء خاطئة، حتى الدعاة، فالأنبياء والرسل معصومون لأن الله -عز وجل- يعصمهم لكن بالنسبة للدعاة يمكن أن يفتنوا بذلك.

إذًا المعنى العام للآية -بعيدًا عن المعنى التفصيلي-؛ إنكم أيها المؤمنون لا تعلمون حقيقة هؤلاء، إنهم كذَّابون وأنتم لا تعرفون هذه الحقيقة، أنتم تظنون أن هذا القسم حقيقي لكنه ليس كذلك.

إذًا الداعية لا بد أن يفرق بين الأسئلة التي ترِد عليه، فيعرف هل هذا سؤال تشكيك وجدال أم سؤال بحث عن الحق، ينبغي أن يُفرق بين من يريد الهداية حقًّا ومن جاء يختلق الأعذار.

لذلك من اللطائف الجميلة في شرح حديث غلام الأخدود عندما جاء الغلام للراهب وقال له إنه عندما يتأخر عنده يضربونه في البيت، وعندما يتأخر على الساحر يضربه الساحر ضربًا مؤلمًا، فالراهب أعطى للغلام حلاً، قال له: إذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، وإذا خشيت الساحر قل له: حبسني أهلي، فلا بد للمعلم -الراهب هنا- لا بد أن يُفرق بين الأعذار التي يتقدم بها طلابه، لأن هناك من يقول أعذار غير حقيقية فهذا لا تهتم بحل مشاكله؛ لأنك حتى لو قدمت له حلاً لهذه المشكلة سيخترع لك غيرها، فستكون مطالبًا طيلة الوقت أن تجد له حلولاً لأعذاره، لا بد أن تدفعه ليقاوم ويجاهد نفسه، فالغلام عندما أثبت أنه فعلاً راغب في طلب الحق فهنا الراهب عرف أن عذره فعلاً حقيقي فقدم له حل، فلا بد للداعية أو المربي أن يفهم هل هذا السؤال سؤال تشكيكي جدالي لا يُجاب عنه أم سؤال يُجاب عنه، هناك سؤال إجابته بالإعراض، وسؤال إجابته بالتفهيم.

فهنا عندما أقسموا هذا القسم الذي أنت من الممكن بعاطفتك الدعوية تعتقد "يا رب أنزل لهم آية" يمكن أن تكون هذه الآية سبب هلاكهم أصلاً، بمعنى هو لا يحتاج آية، كل هذه الآيات التي أعرض عنها فهو لن يؤمن، فذكر الله لنا قاعدة: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبصَٰرَهُم كَمَا لَم يُؤمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّة} (الانعام ١١٠) هذه الهاء تعود على القرآن أي مَن لم ينفعه القرآن لن تنفعه أي آية، هذه قاعدة؛ الذي لا يؤثر فيه القرآن لا يؤثر فيه شيء آخر، هذه معجزة هذا الزمان إلى يوم القيامة، هذه المعجزة الأخيرة، فالذي لن يؤمن بهذه المعجزة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًّا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة)[٤] إذًا هو معجزة، مثلما كانت عصا موسى معجزة لم يستطيعوا أن يفعلوا مقابلها شيء، فالقرآن هذا معجزة، معجزة أنزلها الله -عز وجل- على قلب النبي -صلى الله عليه وسلم-، المسلمون يتحدون بالقرآن أي أحد، نجاهد بالقرآن {وَجَٰهِدهُم بِهِۦ} (الفرقان ٥٢).

إذًا الذي لن يؤمن بالقرآن ولن يؤثر فيه القرآن لن ينفعه شيء بعد هذا، لن يتأثر بأي شيء بعد ذلك.

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبصَٰرَهُم} (الانعام ١١٠)، أي أن الله -عز وجل- سيصرف عنهم رؤية الحق حيث أعرضوا عن الإيمان بالقرآن.

إذًا القصة كيف تحدث؟ أن أحدًا يأتي عنده بقايا فطرة يوضع في مواضع ضيق وتضرع مثل التي عندنا في أول سورة الأنعام فتذكره بالله؛ إنك تحتاج إلى رب. وهو في منتصف البحر يعرف أنه يحتاج لربنا، هو في قرارة نفسه يعرف؛ الذي كان يقول: {أنا ربكم الأعلى} (النازعات ٢٤) في لحظات الغرق قال: آمنت، إذًا كل إنسان بداخله هذا الضعف موجود، مهما هرب منه ومهما ادَّعى أنه لا يحتاج إلى رب، هذا الضعف موجود بداخله، فيظهر في أشد اللحظات أو يظل يكتمه، ولكنه موجود في قرارة نفسه هذه هي الفطرة{وَأَشهَدَهُم عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم ۖ قَالُوا بَلَىٰ} (الأعراف ١٧٢)، هذه الفطرة موجودة، القرآن يستحث هذه الفطرة، فيسمع القرآن يجده يوافق الفطرة التي بداخله، فيصر على الإعراض؛ هو يحدث له شيء-يشبه تلامس أسلاك الكهرباء- عندما يسمع القرآن هذا كلام رب البشر، هذا كلام خالقه، الذي أودع فيه الفطرة تكلم بهذا الكلام، فيحدث التواصل فإما يَذل لهذا

[٤] ما من نبيٍّ من الأنبياءِ إلّا وقد أوتيَ من الآياتِ ما آمنَ على مثلِهِ البشرُ، وإنَّما كان الَّذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعًا يومَ القيامةِ
ابن تيمية (ت ٧٢٨)، الجواب الصحيح ٦/٣٨٠ • صحيح

الكلام ويصغي إليه ويؤمن، أو يعرض؛ القرآن يُتلى عليه فيعرض ويتكرر فيعرض... هنا تأتي {نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ}، هنا يُزين له العمل، هنا يختار "عداوته ما بَقِيت"، بمعنى أنه يعرف أن هذا هو الحق ويتركه.

{ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبصَٰرَهُم} (الانعام ١١٠)، انتبه هنا بدأ التقليب بالفؤاد قبل البصر {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم} (الانعام ١١٠)، عندما يضل الفؤاد لم يعُد البصر يرى، بمعنى أن الفؤاد إذا ضل يرى الآية أمامه، يرى الشمس التي تشرق كل يوم، ويقول: إن هذا الكون جاء بالصدفة!!!، يرى الطين والبذرة تثمر تفاحًا ومانجو وبرتقالاً، ويقول: لا؛ هذا جاء بالصدفة!، يقول: لا يوجد إله!، الفؤاد عندما ضل أصبح البصر لا يرى تمامًا، {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبصَٰرَهُم كَمَا لَم يُؤمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّة} (الانعام ١١٠)، العبد يخاف أن يُعرَض عليه الحق فيُعرِض عنه، فيُعاقب بالحرمان من الحق، هذه نعمة خُذْها؛ ولكنه يرفضها، إذًا يُحرَم منها.

لذلك –نسأل الله العافية– غير الملتزم، البعيد عن الالتزام أسهل التزامًا من المنتكس الذي عرف الحق ثم ابتعد؛ لأن الذي كان بعيدًا أصلاً يمكن أن ترده آيات بسيطة، مواقف بسيطة تُذكِّره، لكن الذي عرف ثم ابتعد تبذل كل ما في وسعك معه ولا يستجيب إلا قليلا، من خبرات الواقع والكتب والتجارب وكتابات المربين؛ إن أغلب المنتكسين لا يعود مرة أخرى إلا مَن رحم ربي، لأنه عرف، وذاق، وعرف الحق، فابتعد عنه وأنكره.

كما قال تعالى { فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث} (الأعراف ١٧٦)، لا يوجد شيء يشبعه يظل يلهث طول الوقت، لماذا؟ لأنه رأى {وَٱتلُ عَلَيهِم نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَينَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنهَا} (الأعراف ١٧٥)، انظر إلى التعبير بكلمة {فانسلخ} (الأعراف ١٧٥) الذي ذاق الحق ويبعد يشعر بانسلاخ، يشعر أن جلده يتقطع ثم بعد ذلك يعتاد ولم يعد يشبع من أي شيء، لا شهوات تشبعه، ولا أي شيء يشبعه {فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلكَلبِ إِن تَحمِل عَلَيهِ يَلهَث أَو تَترُكهُ يَلهَث} (الأعراف ١٧٦) فالعبد يخاف أن يرفض الحق عصبيةً، حميةً، غضبًا، لا يريد الحق فيُحرم. لذلك كثير من العلماء كان يقول: "وأنا أحرر المسألة أكون خائفا أن يكون غرضي أنصر مذهبي"، بل كثير من الأئمة مثل الإمام المعَلمي كان يقول في مسألة: أحيانًا بعد أن يحرر الإنسان المسألة ويصل بالأدلة وأحس أنه وصل للنتيجة النهائية التي وافقت مذهبه يكون في قمة السعادة، ثم يجد دليلاً يخالف هذا فيقول: عندها

يحدث بداخله صراع، لذلك نجد المتعصبين للمذاهب يقولون لك: "كل حديث يخالف المذهب هو ضعيف أو مؤول، كل آية تخالف المنهج هي منسوخة، أو مؤولة"، هو أخذ قرارًا بذلك.

يجب أن يكون الإنسان لينًا منقادًا للشرع، الإعراض سيؤدي إلى إعراض أكثر، سييسر له طريق العسرى والعياذ بالله.

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبصَٰرَهُم كَمَا لَم يُؤمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُم} (الانعام ١١٠) أسوأ عقوبة أن يتركك الله {ونذرهم} (الانعام ١١٠). {وَإِن مِّنكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتما مَّقضِيّا} (مريم ٧١)، كلنا لا بد أن نمر على ظهر جهنم {ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا} (مريم ٧٢)، والآخرين؟ هل قال عنهم الله "ونُوقِعهم"، ماذا قال؟ {ونذر} (مريم ٧٢)، مجرد أن يُترك يقع.

لذلك سيدنا إبراهيم –عليه السلام– عندما قال: {لا أحب الآفلين} (الانعام ٧٦) بعدها قال: {لَّئِن لَّم يَهدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلقَومِ ٱلضَّآلِّينَ} (الانعام ٧٧) لو لم تعطِني هداية سأضل، أنا وحدي أضيع.

النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول كما أخبر الله –عز وجل– في آخر سورة سبأ: {قُل إِن ضَلَلتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفسِيۖ وَإِنِ ٱهتَدَيتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ} (سبا ٥٠). عقوبة أن يتركك الله، أسوأ شعور أصلاً يسيطر عليك شعور أن الله تركك؛ لذلك ربنا طمأن النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال له: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ} (الضحى ٣)، {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّا} (مريم ٦٤) الله لم يتركك. أحيانًا يجب الإنسان أن يسمع هذه الكلمة، أسوأ عقوبة تشعر بها أن يتركك الله، لا أن يعاقبك ... لا لا، مجرد فقط الترك {نذرهم} (الانعام ١١٠)، الترك أن تترك هذا الشيء هنا ثم تأتي بعد سنة تجده كما هو، لكن مع ربنا لا تجده كما هو، تجده في الضلال، {ونذر} (مريم ٧٢) مجرد أن تركه الله وقع، {وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّا} (مريم ٧٢). قال تعالى في الحديث القدسي (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته)[٥]، كلنا

---

[٥] [عن أبي ذر الغفاري:] عَنِ النبيِّ ﷺ، فِيما رَوى عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى أَنَّهُ قالَ: يا عِبادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا، يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلّا مَن هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ، إِلّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عارٍ، إِلّا مَن كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ، وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكُمْ، ما زادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَأَلُونِي فأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إِنَّما هي أَعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاها، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إِلّا نَفْسَهُ.وفي روايةٍ: إِنِّي حَرَّمْتُ على نَفْسِي الظُّلْمَ وعلى عِبادِي، فلا تَظالَمُوا.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٧٧ • [صحيح]

سنضل، أكبر عالم حتى أجهل شخص (إلا من هديته) الذي يهديه ربنا، إلا الذي ربنا -سبحانه وتعالى- يوفقه. فعقوبة {ونذرهم} (الانعام ١١٠) مصيبة...حين تركه الله ماذا حدث؟ بل لماذا تركهم ربنا أولاً؟ لأنهم كان عندهم طغيان، رافض الحق -عنده مبرر- هو اختار الطغيان، والطغيان أحاط به فلذلك ربنا تركه في وسط الطغيان، أنت اخترت أنك تمشي في هذا الطريق إذًا أنا سأتركك. {وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ} عندما تركهم الله ماذا حدث لهم؟ {يعمهون} ما معنى يعمهون؟ فرَّق العلماء بين العمى والعمه، بعض العلماء -باختصار- يقولون: العمى: عمى البصر، والعمه: عمه القلب، وإن كان العمى أحيانًا يأتي مع القلب، لكن أصل كلمة العمه بعض العلماء يقولون: هو التردد والتحير، وأصلها اللغوي كما قالوا: العَمْهَاء: هي الأرض التي يضل فيها الإنسان؛ لأن ليس فيها أعلام وليس فيها ملامح، فَيضَلَّ؛ لا يعرف لأين يسير، الذي كانت تضل إبله في مكان ليس فيه إشارات، ولا أشجار، ولا جبال، ولا تل، ولا أي شيء يُقال: هذه أرض عمهاء، انسَ هذه الإبل تمامًا، فلن تعود.

فالذي يوجد في مكان يضل لا يعرف أين يسير!، ولا يعرف أين يتجه، هذا في عمه، فهذا أصل الكلمة: التردد والتحير، التحير جاء من العمه.

فالذي تركه الله لم يعد لديه إشارات، ولا دليل على الطريق الصحيح، إحساس قاتل؛ أنت بنفسك قد تختار أداة قتلك، أنت الذي تختار الطريق الذي تموت فيه!!! {وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا} (الاسراء ١١)، بمعنى أن الإنسان يمكنه أن يختار الطريق الذي يكون فيه هلاكه، تخيل!! وهو لا يعرف. لذلك يقول الله: {صم بكم عمي} (البقرة ١٨) أول سورة البقرة عندما تركهم الله. تخيل شخص في حجرة مليئة مهالك، هذه الحجرة مظلمة، وهو لا يرى، سينادي على الناس حتى ينقذونه لا يستطيع {صم} (البقرة ١٨)، حتى لو ستنادي عليه تقول له: احذر! تجده لا يسمع، تخيل! {صم بكم عمي} (البقرة ١٨) ... هذا لا يرجع {فهم لا يرجعون} (البقرة ١٨) لن يرجع، لن يصل لحق ولا نجاة ولا أي شيء، سيظل يكمل ومستمر حتى جهنم، نسأل الله العافية. أمر خطير الإعراض عن آيات القرآن أمر عقابه شديد.

سورة الأنعام كما جاءت بآيات كثيرة، جاءت بعقوبات شديدة، طالما السورة أكثرت في الآيات، ووصلت لمرحلة البيِّنات والبصائر والآيات الواضحة، إذًا العقوبة هنا شديدة {ونذرهم في طغيانهم يعمهون} (الانعام ١١٠) يقول الله تعالى للمسلمين المشكلة فيهم ليست في الآيات، وانظر إلى أي

مدى وصل فجورهم {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله} (الانعام ١١١)! تخيل هذا المشهد، أن أحدًا يقول له النبي -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون: آمن، اتقِ الله، خَفْ من الدار الآخرة، يقول لهم: ما الذي يجعلني أصدق؟ فيقرأون عليه القرآن، ويتحدونه بالقرآن، ويتحدونه بالخلق، يكلمونه عن ربنا وينبهونه للآيات التي في الكون يقول لهم: لا.. أيضًا، أنا غير مصدق. تخيل الآن المشهد، ربنا يقول لهم: لو نزلت الملائكة كلها من السماء وشهدت للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه على الحق، كلمة {ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة} (الانعام ١١١) أي: لتشهد للنبي -صلى الله عليه وسلم- أنه على الحق، وأحيا لهم الموتى، الطلبات التي كانوا يطلبونها، أي أن كل الطلبات التي كانوا يطلبونها تحققت، الملائكة نزلت من السماء، وآباؤهم أحياهم الله معذبين في جهنم يخبرونهم: نحن نعذب بسبب أننا لم نتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ليس هذا فقط، هم طلبوا هذين الطلبين، "نزول الملائكة وأن يأتوا بالآباء" ليس هذا فقط، {وحشرنا عليهم كل شيء قبلا} (الانعام ١١١). {قُبُلا} (الانعام ١١١) فيها ثلاثة أقوال، إما مواجهة عيانًا، أو قبلاً: قبيلة قبيلة بمعنى أفواج أفواج بمعنى مثلاً الطيور تأتي أولاً تشهد، وبعدها تأتي السباع وتشهد، وبعدها تأتي الجمادات وتشهد، والنباتات...كل شيء جاء يشهد. وقيل: قبلاً: جمع قبيل أي كفيل بمعنى أن كل واحد يأتي يقسم، أي لا يأتي يقول هذا الرسول فقط إنما يأتي يقول: نقسم أنه رسول! تخيل كل الكائنات جاءت تشهد، يقول: لا لا.. أكيد هذه مؤامرة عليَّ يريدون أن يخدعونني، لا أنا لا يستطيع أحد أن يخدعني، أنت تريدني أن أؤمن مثل بادي الرأي، {أنؤمن كما آمن السفهاء} (البقرة ١٣) وهل تعتقد أنني سفيه! أنا لا أُخدع بسهولة... تخيل أحدًا مهما شاهد من الآيات -عياذًا بالله- ينكر! عقوبة شديدة. {ما كانوا ليؤمنوا} (الانعام ١١١)، هذا فيه طمأنة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين... ضع جهدك الدعوي في مكانه، لا يكون عندك تبذير دعوي.

المبذر: أصلها في اللغة الذي معه البذور ويضع البذرة في غير مكانها، تجده معه بذور كثيرة ويرميها في أي أرض -وإن كانت صخرية جدباء- هذا اسمه مبذر؛ أي يلقي البذر في غير مكانه، هذا الأصل اللغوي، فهناك أشخاص عندهم تبذير دعوي، فلا بد أن تضبط دعوتك؛ تكون على علم هذا ستُجيبه، هذا لا. {ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون} (الانعام ١١١)، بعض المفسرين قال هذا عتاب شديد للمؤمنين، وكلمة {يجهلون} (الانعام ١١١) هذه تعود على المؤمنين. والغالب قال {ولكن أكثرهم يجهلون} (الانعام ١١١) تعود على المشركين. لكن أريد أن أقول إن بعض المفسرين

اختار –من شدة توجيه الآيات أنهم لا يضيعون وقتهم مع هؤلاء– قالوا إن الله عاتبهم في هذه الآيات {ولكن أكثرهم يجهلون} (الانعام ١١١). ونتعجب لماذا حدث هذا؟ الله يبين لنا{وكذلك جعلنا} (الانعام ١١٢) هذه سنة من سنن الله –سبحانه وتعالى– حتى لا يصيب النبي –صلى الله عليه وسلم– الأسى والحزن على قومه، و حتى لا يتألم المؤمنون من الأوضاع الموجودة، فربنا يقول لهم: اطمئنوا هذه سنة ثابتة، هذا ابتلاء ثابت هذا أمر قدري قدره الله {وكذلك جعلنا} (الانعام ١١٢) الله –عز وجل– ترك إبليس من أول لحظة، كان من الممكن أن يخسف الله به الأرض، كان من الممكن أن يهلكه، لكن لما قال لله {انظرني } (الأعراف ١٤) –ذلك اللعين– ربنا أنظره، قال: {إنك من المنظرين} (الأعراف ١٥) ربنا تركه ابتلاءً لأهل الإيمان، نحن مخلوقون للابتلاء، نحن في امتحان، لا بد من أن نفهم أننا دائمًا وأبدًا في موضع ابتلاء وامتحان...من سيظل منتظرًا في لجنة الامتحان ناسيًا إنه في امتحان سيضيع وقته، يجلس يلهو ويلعب، ونسي أنه في امتحان. لذلك لا بد أن نفهم ونُقدر دائما خطورة أننا نُمتحن {وكذلك جعلنا} (الانعام ١١٢) أمر قدري، {لكل نبي عدوا} (الانعام ١١٢) هذه قاعدة؛ ((من سار على طريق الأنبياء فلا بد له من أعداء))، {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا} (الانعام ١١٢) فمن سيسير على طريق الأنبياء، لا بد له من أعداء. وكلمة {لكل نبي} أي لن يتركوا مُصلِحًا إلا ويعادونه؛ لن يتركوا داعية إلا ويعادونه.

قالها ورقة بن نوفل للنبي –صلى الله عليه وسلم – (ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي)، قال النبي –صلى الله عليه وسلم– (حتى أنا!)، قال له: (حتى أنت)[٦]. تعجب النبي –صلى الله عليه وسلم– في

[٦] [عن عائشة أم المؤمنين:] كانَ أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّادِقَةَ في النَّوْمِ، فكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الخَلاءُ، فكانَ يَخْلُو بغارِ حِراءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ، وهو التَّعَبُّدُ، اللَّيالِيَ أُولاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهْلِهِ ويَتَزَوَّدُ لذلكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِها، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فَجاءَهُ المَلَكُ، فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، قالَ: قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ، ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: {اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنْسانَ مِن عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ (٣) الذي عَلَّمَ بالقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١ - ٥]، فَرَجَعَ بها رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ تَرْجُفُ بَوادِرُهُ، حتَّى دَخَلَ علَى خَدِيجَةَ، فقالَ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهَبَ عنْه الرَّوْعُ، ثُمَّ قالَ لِخَدِيجَةَ: أيْ خَدِيجَةُ، ما لي وأَخْبَرَها الخَبَرَ، قالَ: لَقَدْ خَشِيتُ علَى نَفْسِي، قالَتْ له خَدِيجَةُ: كَلَّا أبْشِرْ، فَواللَّهِ، لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، واللَّهِ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ علَى نَوائِبِ الحَقِّ، فانْطَلَقَتْ به خَدِيجَةُ حتَّى أتَتْ به ورَقَةَ بنَ نَوْفَلِ بنِ أسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى، وهو ابنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أخِي أبِيها، وكانَ امْرَءًا تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكْتُبُ الكِتابَ العَرَبِيَّ، ويَكْتُبُ مِنَ الإنْجِيلِ بالعَرَبِيَّةِ ما شاءَ اللَّهُ أنْ يَكْتُبَ، وكانَ شيخًا كَبِيرًا قدْ عَمِيَ، فقالَتْ له خَدِيجَةُ: أيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ، قالَ ورَقَةُ بنُ نَوْفَلٍ: يا ابْنَ أخِي، ماذا تَرَى؟ فأخْبَرَهُ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ خَبَرَ ما رَآهُ، فقالَ له ورَقَةُ: هذا النَّامُوسُ الذي أُنْزِلَ علَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، يا لَيْتَنِي فِيها جَذَعًا، يا لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قالَ ورَقَةُ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. وفي رواية: أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الوَحْيِ وساقَ الحَدِيثَ بمِثْلِ حَدِيثِ يُونُسَ، غيرَ أنَّه قالَ: فَواللَّهِ، لا يُخْزِيكَ اللَّهُ أبَدًا، وقالَ: قالَتْ خَدِيجَةُ: أيِ ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أخِيكَ.

نفسه؛ هؤلاء يحبونني! وأنا الصادق الأمين! وأماناتهم عندي! مهما كنت ستُعادَى؛ حتى لا تظن أن العيب في الداعية. مهما كان مخلصًا، أمينًا، صادقًا، يقوم على خدمتهم، سيعادونه؛ لأن شهواتهم أقوى من حبهم له، أهواءهم أقوى من حبهم إياه، وأقوى من علاقتهم والقرابة بينهم، الأهواء أقوى من ذلك. {كذلك جعلنا لكل نبي عدوا} (الانعام ١١٢) لذلك المصلح الذي ليس له أي أعداء يكون هناك خطأ ما. وماذا لو انقلب الأعداء أصدقاء؟ الذين كانوا بالأمس أعداءً، الذين كانوا السنة الماضية أعداءً، أصبحوا الآن أصدقاءً؛ إذًا حدث أمرٌ ما. أمر من اثنين؛ إما أنهم تغيروا أو أنك تغيرت. إنما هم أعداء ومنهجهم مخالف لمنهجك ثم أصبحتم أصدقاء؟!؛ إذًا هناك خطأ ما، هو يستغلك أو أنت أصبحت لا ترى الأمر على حقيقته! إما أنه تغير أو أنك تغيرت.

إذًا هذه قاعدة ثابتة: العداوة قائمة إلى يوم القيامة، لا تقوم الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود. انسْ موضوع أن نحاول حل الأمر بالود مع بعضنا البعض؛ نعطيهم هذا الجزء، ويعطوننا هذا الجزء وينتهي الأمر، وأن الفلسطينيين مخطئون، لِمَ لا يتركون لهم غزة؟! لو تركوا لهم غزة سيحتلون مصر، ولو تركوا لهم مصر سيحتلون السعودية، {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم} (البقرة ١٢٠). فالصراع قائم إلى يوم القيامة، ليس مجرد حدود، هذا صراع عقائد مستمر إلى يوم القيامة.

فهذه العداوة أمر قدري مستمر، بما أن الله –عز وجل– منح إبليس فرصة أن يُنظَر إلى يوم يبعثون، فأصل هذه العداوة إبليس، ويضع عرشه على الماء، ويرسل السرايا... إذًا هذا الأمر مستمر إلى يوم القيامة. {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا} (الانعام ١١٢)، الذي يقوم بأصول هذه العداوة الشياطين وهم المردة الأساسيين الذين هم أكابر المجرمين. وهكذا المعارك؛ أشخاص يقودون المعركة، وآخرون أتباع لا رأى لهم، يتبعون أكابر المجرمين. {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا} (الانعام ١١٢). العجيب هنا أن الله –عز وجل– ذكر الإنس قبل الجن، كأن شياطين الإنس أخطر من شياطين الجن.

في بعض الروايات –وإن كان سند كل رواية بمفردها ضعيف– لكن ابن كثير قال: تتقوى بمجموع الطرق؛ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال لأبي ذر: (استعذ من شياطين الإنس والجن، فقال أبو ذر: أوَ

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٦٠ • [صحيح]

للإنس شياطين؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: نعم)[٧]. هذا الأثر أغلب الروايات عنه مرسلة عن قتادة، لكن كما ذكرنا أن ابن كثير قال مجموع الطرق يشد بعضه بعضًا أي يُصحح.

وبعض المفسرين قال: شياطين الإنس والجن؛ أي جزء الشياطين الخاص بالإنس وجزء الشياطين الخاص بالجن؛ أي الشياطين يقسّمون أنفسهم؛ شياطين تذهب لتضل الجن، وشياطين تضل الإنس. فالجن أيضًا عندهم ابتلاء {إنا سمعنا كتابا} (الاحقاف ٣٠)، {قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن} (الجن ١)، ومنهم مسلم ومنهم كافر {وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا} (الجن ١١). فالشياطين يقسّمون أنفسهم، هذا لديه خبرات مع الجن إذًا يضل الجن، هذا لديه خبرات مع الإنس، ومداخل الإنس فيضلهم، هذا لديه خبرات مع الشيعة إذًا يكون مع الشيعة، وهذا لديه خبرات مع الملتزمين، وهذا مع الدعاة وهكذا، وبينهم مسابقات. إبليس يأتي ليرى من الذي فاز! (يبعث إبليس سراياه، يأتي أحدهم يقول له: ما تركته حتى فعل كذا، يقول له: لا ليس أنت، وهكذا حتى يقوم أحدهم ويقول له: ما تركته حتى فرقت بينه وبين زوجته، فيقوم فيلتزمه -أي يحتضنه- يقول له: أنت أنت)[٨]- هذا هو الرابح- وهكذا؛ هذا الحديث السابق في صحيح مسلم.

الإمام السُّدي يقول: "إن الشياطين تجلس مع بعضها تقول أنا أضللت صاحبي بكذا وكذا"، هذا تفسير {يوحي بعضهم إلى بعض} (الانعام ١١٢) فيقول الآخر وأنا أضللت صاحبي بكذا وكذا فيتعلمون من بعضهم البعض؛ تبادل خبرات. وهناك مَن قال - الذين أخذوا القول المروي عن قتادة- إن تبادل الخبرات يكون بين الإنس والجن، أي أحيانًا شيطان الجن يرى شيطان الإنس يفعل شيئًا يقول له: تفوقت عليَّ؛ لم تخطر على بالي، من أين أتيت بها! فيتعلم منه. فيذهب لشياطين الجن يقول لهم: لقد

---

[٧] [عن أبي ذر الغفاري:] أَتَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو في المَسجِدِ، فجَلَسْتُ إليه، فقال لي: يا أبا ذَرٍّ، هل صلَّيتَ؟ قُلْتُ: لا، قال: قُمْ فصَلِّ، قال: فقُمْتُ، فصلَّيْتُ، ثُم أتَيْتُه، فجَلَسْتُ إليه، فقال: يا أبا ذَرٍّ، استَعِذْ باللهِ من شرِّ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، وهل للإنسِ من شياطينَ؟ قال: نَعَمْ. يا أبا ذَرٍّ، ألا أدُلُّكَ على كَنزٍ من كُنوزِ الجَنَّةِ؟ قال: قُلْتُ: بَلى، بأبي أنتَ وأُمِّي، قال: قُلْ: لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ فإنَّها كَنزٌ من كُنوزِ الجَنَّةِ، قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، فما الصَّلاةُ؟ قال: خيرٌ موضوعٌ، فمَن شاءَ أكثَرَ، ومَن شاءَ أقَلَّ، قال: قُلْتُ: فما الصيامُ، يا رسولَ اللهِ؟ قال: قَرضٌ مُجزئٌ، قال: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، فما الصدَقةُ؟ قال: أضعافٌ مُضاعفةٌ، وعندَ اللهِ مَزيدٌ، قال: قُلْتُ: أيُّها أفضَلُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: جُهدٌ من مُقِلٍّ، أو سِرٌّ إلى فَقيرٍ، قُلْتُ: فأيُّ أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليك أعظَمُ؟ قال: {اللَّهُ لا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥]، حتى ختَمَ الآيةَ، قُلْتُ: فأيُّ الأنبياءِ كان أوَّلَ؟ قال: آدَمُ، قُلْتُ: أونبيٌّ كان يا رسولَ اللهِ؟ قال: نَعَمْ، نبيٌّ مُكلَّمٌ، قُلْتُ: فكَمِ المُرسَلونَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: ثلاثُ مِئَةٍ وخَمسةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفيرًا.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢١٥٥٢ • إسناده ضعيف

[٨] [عن جابر بن عبد الله:] إنَّ إبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ على الماءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَراياهُ، فأدْناهُمْ منه مَنْزِلَةً أعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: فَعَلْتُ كَذا وكَذا، فيَقولُ: ما صَنَعْتَ شيئًا، قالَ ثُمَّ يَجِيءُ أحَدُهُمْ فيَقولُ: ما تَرَكْتُهُ حتَّى فَرَّقْتُ بيْنَهُ وبيْنَ امْرَأتِهِ، قالَ: فيُدْنِيهِ منه ويقولُ: نِعْمَ أنْتَ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٨١٣

رأيت شيطان إنس أتى بأمر لم أعرفه من قبل!، فيعلمها لشياطين الجن. وهكذا يتعلمون من بعضهم البعض. {يوحي بعضهم إلى بعض} (الانعام ١١٢) قدم الله كلمة {شياطين} (الانعام ١١٢) كلمة شيطان من مصدر شطن؛ أي ابتعد، أو شاط من الغيظ؛ مغتاظ من بني آدم...وقدم الإنس على الجن.

الله يقص لنا كيف تكون بداية من يصل لمرحلة أنه يسب الله؟! أنت تتعجب كيف وصل هؤلاء أن يسبوا الله عدوا بغير علم؟ نسير مع سياق الآيات... ذكر الله لنا أن هؤلاء -الذين يسبون الله- قد زُين لهم. وكيف وصلوا لمرحلة التزيين؟

ربنا يقص لنا القصة من البداية؛ أن هناك شياطين إنس وهؤلاء الشياطين يجلسون مع بعضهم البعض يتشاورون كيف سيفتنون الناس. بماذا تبدأ الفتنة؟ بـ {يوحي} (الانعام ١١٢)؛ بالقول، {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول} (الانعام ١١٢)، الموضوع يبدأ كله بالكلام؛ أنه يستبدل كلام الوحي بكلام آخر مزخرف. وهنا نكتة والله أعلى وأعلم في استعمال لفظ {يوحي} (الانعام ١١٢) بعض العلماء قال: لماذا {يوحي} (الانعام ١١٢) هنا؟ قال الوحي -حمله على المعنى اللغوي- إن الوحي هو إعلام أحد بدقة وخفاء هذا هو أصل المعني اللغوي. لذلك الوحي أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يُعْلَم بأمر لكن فيه دقة وخفاء، تخفى على الحاضرين فلا يسمع ولا يطلع إلا النبي -صلى عليه وسلم-، فسمى الوحي لذلك... أو إكساب هذا الكلام معنى شرعي، بمعنى أنه ليس فقط يقول كلام؛ إنما يُضفي على كلامه معنى شرعيًا وقداسة شرعية؛ كي تروج على الناس. {يوحى بعضهم لبعض زخرف القول} (الانعام ١١٢) انتبه ليس قول فقط. الوحي هو كلام الله، قول ربنا -سبحانه وتعالى-هو الحق الواضح المبين. هناك أمور في الوحي ثقيلة على النفس {كتب عليكم القتال وهو كره لكم} (البقرة ٢١٦). وهناك أمور محببة إلى النفوس (قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته وتكون له أجر قال نعم)[٩]. فهناك أمور في الشرع قد تكون محببه إليك، وهناك أمور في الشرع ثقيلة عليك. أما التزيين فيكون كله مزخرف، كل الفِرق الضالة تدخل إلى الناس من شهوتها. فمثلا النصراني يقول لك: أنت تستطيع أن تفعل كل ما تريد وفي النهاية تدفع مبلغ وتعترف وينتهي الأمر. أو الشيعة يقولون لك: عندنا زواج متعة،

[٩] [عن أبي ذر الغفاري:] أَنَّ ناسًا مِن أَصْحابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ: يا رَسولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كما نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بفُضُولِ أَمْوالِهِمْ، قالَ: أَوَلَيسَ قدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بالمَعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أيَأْتي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ وَيَكونُ له فِيها أَجْرٌ؟ قالَ: أَرَأَيْتُمْ لو وَضَعَها في حَرامٍ أَكانَ عليه فِيها وِزْرٌ؟ فَكَذلكَ إذا وَضَعَها في الحَلالِ كانَ له أَجْرٌ. مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٠٠٦ • [صحيح]

وعندنا...، والليبرالية هي الحرية. عندما يريد أن يفتنك يدخل لك من الزخرفة، من شهواتك. وإبليس فعل هذا مع أبينا آدم، قال له: {ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين} (الأعراف ٢٠) دخل له من شهوة الخلود. لم يقل له: هذه الشجرة ستصيبك بالصداع ولكن اضغط على نفسك واذهب وكُل منها، لم يقل له ذلك. قال له: هذه الشجرة لو أكلت منها ستصبح ملكًا وستكون من الخالدين. مثال آخر مع إخوة يوسف؛ {اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين} (يوسف ٩)، من الممكن أن نتوب بعد هذه المعصية. فالشيطان يدخل لك من الشهوات. فيبدأون بكلام معسول، الموضوع كله من الممكن أن يبدأ بكلام.

لذلك الله قال لآدم: هذه شجرة المعصية، إبليس قال له: هذه شجرة الخلد والملك؛ غيَّر اسمها؛ لذلك أخطر شيء المصطلح الخاطئ. أكبر تغيير وانحراف يحدث أن الذي كان يُقال عنه محرمًا >>>يُقال عنه عيبًا>>> يُقال عنه لا يهم>>>يُقال عنه تقاليد الآباء>>>يقال عليه دين!!! بعد أن كان محرمًا، أصبح حلالا أو مستحبًا... أن يتحول النقاب إلى عادة ثم يُقال عنه مكروهًا. اللعب في المصطلح هذا أخطر شيء. لذلك أول أمر تعلمه سيدنا آدم {وعلم آدم الاسماء} (البقرة ٣١) أن يعرف أسماء كل شيء. وهذا دور العلماء، أن يكونوا على علم بحكم كل شيء، لذلك بعد سياق هذه الزخرفة، جاءت الآية {أفغير الله أبتغي حكما} (الانعام ١١٤). إذًا التحايل كله أنه يريد أن يجعل الحكم لغير الله، أنه يريد أن يضع تشريعًا غير تشريع ربنا، يريد تشريعًا يناسب الأهواء. إذًا كل هذه الزخرفة، وكل هذا الأمر الذي يحدث والبعد عن الآيات؛ كل هذا ما هو إلا هروب من حكم الله. أي أن رفض القرآن ورفض الآيات ليس لأنه غير مصدق؛ بل هو لديه أهواء وحكم ربنا يصادم هذه الأهواء، فيريد تشريعًا آخر، فيهرب من هذه المنظومة كلها.

يجب أن نفهم لماذا يهرب؟ ما الحيلة النفسية التي يصنعها لكي يكذب هذه الآيات؟ الأمر أنه بداخله شهوات فيحاول حلها؛ بأن يرفض القرآن، يقول سنبقى في النار أياما معدودة... يريد أن يهرب من الدخول تحت حُكم ربنا ومن شرع ربنا -سبحانه وتعالى- فيهرب. فيبدأ بأن يأتي بقول غير الوحي، ولكن الوحي أقوى؛ فماذا يفعل في قوله؟ يزخرفه. قالوا أصل الزخرف؛ الذهب. فيطليه بماء ذهب من الخارج فيصبح لامعًا، مثل: {عجلا جسدا} (الأعراف ١٤٨) ماذا؟! {له خوار} (الأعراف ١٤٨). الناس دائمًا تحب الأشياء التي تلمع، التي لها خوار، التي تُخدَع بحركات مثل السحر، فتُخدع بسهولة، وهذه فتنة. لذلك سيدنا موسى قال عن الفتنة -على بعض أقوال العلماء على تفسير الآية في سورة

الأعراف- {إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء} (الأعراف ١٥٥)، العجل الجسد الذي له خوار وإن ربنا قدَّر أن القبضة التي ألقاها السامري على العجل فأصبح حيًّا، {فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها} (طه ٩٦) هذا التقدير الإلهي جعله الله فتنة للناس. الله -عز وجل- هو الذي سيمكِّن الدجال، ليس الدجال هو مَن أتى بهذه القدرات؟ لماذا؟ فتنة. وهذا إن شاء الله يمكن أن نشرحه في مجلس آخر وهي مسألة أن الله -عز وجل- يمكِّن أحيانًا لأهل الباطل بقدرات خارقة قد تفتن الناس؛ فما الحكمة من هذا- ولكن في نفس الوقت جعل الله لأهل الإيمان علامات كي لا يضلوا.

فمثلا أهل الايمان يرون المكتوب على رأس الدجال، "كافر"، ويعلمون من الوحي (أن ربكم ليس بأعور)[١٠].أتى لهم أحد أعور مكتوب على رأسه كافر ولكنه لديه قدرات خارقة، فأنت سوف تصدق البهرجة أم تصدق الوحي الذي لديك؟ مهما رأيت من خوار وزخرفة وزينة؛ أنت لديك وحي.

لذلك أحيانًا مثلاً -كإسقاط عملي- لدينا وحي، وهذا الوحي أخبرنا أن هذا الطريق سيسبب دمارًا، فالبعض سار في هذ الطريق وأتى بتقدم دنيوي!، فما رد فعلك حينئذ؟ سيدخل لك الشك أنه قد يكون هذا الكلام الذي معي خطأ، قد يكون هذا القرآن لزمن ولم يعد يصلح الآن!

بعد مائتي سنة يكون أغلب الناس أو كلهم ماتوا ويظهر فعلا أن هذا الطريق فعلاً آخره دمار... لكن لا أحد رآه دمارا... أنا لا بد أن أوقن حتى وإن لم أرَ، يعني ليس بالضرورة أن أصطدم بالحائط كي أعلم أن هذا الطريق خطأ، ربنا قال هذا الطريق آخره دمار إذًا انتهى الأمر.

هذه هي الخطورة أنك يجب أن تكون موقنا بالغيب، موقن أن هذه المعصية آخرها سيء، ربنا قال هذا. فإذا رأيت أحدًا فعل المعصية وسعيد، فهل تصدق ما علمت من الوحي أم ما تراه بعينيك؟ عليك أن تُقدم الوحي. لذلك من رحمة ربنا بآدم -عليه السلام- أنه عندما أكل من الشجرة {فلما ذاقا} (الأعراف ٢٢)، مجرد أن ذاق ماذا حدث؟ مباشرةً حدث تغيير؛ بدت لهما سوءاتهما. تخيل لو أن سيدنا آدم بمجرد أن أكل من الشجرة أُلبس تاجًا وأصبح ملكًا!!! هذا يكون استدراجًا؛ هذا هو

---

[١٠] - [عن عبدالله بن عمر:] كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الوَداعِ، والنبيُّ ﷺ بيْنَ أظْهُرِنا، ولا نَدْرِي ما حَجَّةُ الوَداعِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنى عليه، ثُمَّ ذَكَرَ المَسِيحَ الدَّجّالَ فأطْنَبَ في ذِكْرِهِ، وقالَ: ما بَعَثَ اللَّهُ مِن نَبِيٍّ إلّا أنْذَرَ أُمَّتَهُ، أنْذَرَهُ نُوحٌ والنَّبِيُّونَ مِن بَعْدِهِ، وإنَّه يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَما خَفِيَ عليْكُمْ مِن شَأْنِهِ فليسَ يَخْفى عليْكُمْ: أنَّ رَبَّكُمْ ليسَ على ما يَخْفى عليْكُمْ ثَلاثًا، إنَّ رَبَّكُمْ ليسَ بأعْوَرَ، وإنَّه أعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنى، كَأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طافِيَةٌ. ألا إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عليْكُمْ دِماءَكُمْ وأمْوالَكُمْ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذا، في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُمْ هذا، ألا هلْ بَلَّغْتُ قالوا: نَعَمْ، قالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلاثًا - ويْلَكُمْ، أوْ ويْحَكُمْ، انْظُرُوا، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقابَ بَعْضٍ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٤٠٢ • [صحيح]

التزيين، هذه فتنة عظيمة! الناس تُنحي الشرع فيحصل تقدم دنيوي، إذًا فهل الشرع هو الذي منع الدنيا أم ماذا؟ ابتلاء وهذه تحتاج تفصيل أيضًا؛ إن الله له سنن لا تتبدل ولا تتغير. إذًا أنت يجب أن تصدق الوحي مهما سمعت خوار، مهما شاهدت بهرجة وزخرف أنت تصدق الذي معك من الوحي.

إذًا هم يأتون بقول بديل و لا بد أن يزينوه، لا بد أن يلمع حتى يشد الناس، فلا تستطيع أن تغمض عينيك، لا بد من شيء يشدك، كأصوات صرخات الدجال... كما قال النبي -صلى الله وسلم-: "ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مُفَتحة عليها ستور مرخاه- هذه الأبواب مثلاً: حائط أسمنت وفيه مكان للباب، هذا الباب غير مغلق بباب خشب مثلاً وإنما هو مفتوح وعليه ستار، طوال سيرك تسمع من خلف الستار أصوات رائعة وجميلة، نفسك تميل لرفع الستار- النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إنك إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)[١١]. أنت طوال سيرك تسمع ضحكات وصخب وأغاني، فتقول أكيد الناس التي خلف الستار ناس سعيدة، فأنت دائمًا الشيطان يصور لك أن هذا الطريق جميل، أن هذه الشجرة شجرة الخلد، شجرة الملك، فأنت تظل تفكر... أطريق الضلال فيه كل هذا؟! ويحدث داخلك هذا الصراع النفسي، لكن أنت إذا فتحت لن تملك نفسك. فلا بد أن يُزخرف لك {يوحي بعضهم إلى بعض زخرف} (الانعام ١١٢)، تكلمنا لماذا شياطين؟ لماذا الإنس قبل الجن؟ ولماذا استعمال لفظ الوحي؟ كلاهما يستفيد من خبرات بعضها البعض، كلام مزخرف يبدأ بكلام؛ هذا الكلام أول تأثير له {غُرورا} (الانعام ١١٢)، أنه يخدع الناس؛ فأول شيء يفعله الشيطان أنه يجعل الناس تلتفت... هذا أول خطأ يحدث.

أغلب الناس -يا إخوة- طيبون، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (المؤمن غِرٌّ كريم)[١٢]؛ يُخدع بسهولة. كلمة غرور طبعًا فيها تفصيل في اللغة؛ قيل الغرور: هو الشيء المخفي على الإنسان، وقيل الغرور: الشيء الذي على طبيعته؛ حين يقال الفتى غِر أو الفتاة غِر أي ليس لها تجارب في الحياة، لا

---

[١١] [عن النواس بن سمعان الأنصاري:] ضربَ اللهُ مَثَلًا صِراطًا مُسْتَقِيمًا وعلى جَنْبَتَيْ الصِّراطِ سُورانِ فيهِما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخاةٌ وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يقولُ يا أيُّها الناسُ ادْخُلوا الصِّراطَ جَمِيعًا ولا تعوجُوا وداعٍ يَدْعُو من فوقِ الصِّراطِ فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا من تِلْكَ الأبوابِ قال ويْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ فالصِّراطُ الإسلامُ والسُّورانِ حُدُودُ اللهِ والأبوابُ المُفَتَّحَةُ مَحارِمُ اللهِ وذلكَ الدّاعِي على رَأْسِ الصِّراطِ كتابُ اللهِ والدّاعِي من فَوْقَ الصِّراطِ واعِظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ
ابن كثير (ت ٧٧٤)، تفسير القرآن ٤٣/١ • إسناده حسن صحيح

[١٢] [عن أبي هريرة:] المُؤمِنُ غِرٌّ كريمٌ، والفاجرُ خِبٌّ لئيمٌ.
أبو داود (ت ٢٧٥)، سنن أبي داود ٤٧٩٠

يعلم شيء، والقميص الغر هو الجديد الذي على بطيته؛ لم يُلبس، فالغرور شخص ليس لديه تجارب، أغلب الناس ليس لديها تجارب، فيُخدَعون، لذلك الصواب لهم أن الوقاية خير من العلاج.

ليس كل الناس مثل سيدنا حذيفة أنه يعلم الشر فيتقيه، أغلب الناس لا تعلم الشر.

علمت الشر لا للشر ولكن لأتقيه... ومن لا يعرف الشر يقع فيه.

ليس كل الناس هكذا، لذلك أغلب الناس الصواب بالنسبة والآمن لهم ألا يقترب وانتهى الأمر.

ألا يفتح الستور... النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول (من سمع بالدجال -هو يعلم أن اسمه دجال- من سمع بالدجال فل ينأى عنه - يبتعد- فوالله إن الرجل ليأتيه ويحسب أنه مؤمن فيتبعه على ما يبعث به من الشبهات) [١٣]

أحد اقربائي يحكي لي يقول: فلان كان يقول لهم تعالوا نشاهد البرنامج الفلاني نضحك عليه- نسمع ما يقول ونضحك عليه -هو يقول إنه يعلم أنه مخرف... ولكن مع الوقت أصبح يردد كلامه ويصدقه، أثَّر فيه. فالإنسان الأولى به أن يبتعد عن زخرف القول؛ لأن أول خطوة إنه سيغتر {غرورًا} (الانعام ١١٢)

تأمل مشهد الساحر والغلام ذاهب إليه والساحر يقول للملك إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، أنت تتمنى أن تقتل الساحر، تتمنى أن تكسر الأشياء الخطأ، فربنا يقولك اطمئن {ولو شاء ربك ما فعلوه} (الانعام ١١٢) هذا ابتلاء، مثلما إبليس موجود هؤلاء سيظلون موجودين؛ أصحاب زخرف القول سيظلون موجودين إلى يوم القيامة. {ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون} (الانعام ١١٢)، لكن هذا سيؤثر في الناس! ربنا يقول لك أنا أعلم؛ لكن سيؤثر فيمَن؟ في الذي لا يفكر في الآخرة {ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالله} (الانعام ١١٣)، كلما ضعف وازع الدار الآخرة عند الإنسان؛ كلما سهل أن يُغر ويُخدع بسهولة، كلما قويَ وازع الدار الآخرة كلما أصبح حذرًا أين سيضع قدمه، الإنسان المتقي يتقي قدمه أين يضعها، يخشى أن يضل، يخشى أن يزل، {إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا} (ال عمران ١٥٥) خائف. {ولتصغى...} (الانعام ١١٣)، أولاً: سمع الكلام فاغتر

[١٣] [عن عمران بن الحصين:] مَن سَمِعَ بالدَّجّالِ فليَنْأَ منه، مَن سَمِعَ بالدَّجّالِ فليَنْأَ منه، مَن سَمِعَ بالدَّجّالِ فليَنْأَ منه؛ فإنَّ الرَّجُلَ يَأتيه وهو يَحسَبُ أنَّه مؤمنٌ، فلا يَزالُ به لِما معه مِن الشُّبَهِ حتى يَتبَعَه.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٩٨٧٥ • إسناده صحيح على شرط مسلم

به، بعد ذلك قال فلأجلس لأسمع؛ هذه: تصغى؛ أي سماع مع ميل عاطفي. أصل كلمة الصغو في اللغة: الميل، اصغي للهِرّ أصغى إليه الإناء أي أمال إليه الإناء، فقالوا الصغو هو الميل، لكن ما الفرق بين الصغو والميل؟ قالوا الصغو ميل معه عاطفة، بدأ يحب؛ قال هذا الطريق جميل، هذا الطريق فيه زخرف، فيه شهوات، هذا الطريق من الممكن أن تسير فيه وضميرك مستريح، تعمل المعاصي كلها وأنت ضميرك مستريح، بدل هذا الطريق الآخر المتشدد الصعب، نعم أنا أريد هذا الطريق، فيبدأ زخرف القول يَغُره.

الغرور: أنك تظن في الشيء فوق قيمته؛ أن تُخدع. لذلك قالوا إن الظبي يُغَر؛ يأتي القمر ليلاً وفي ليلة مقمرة مضيئة يخرج، الظبي يختبئ ليلاً حتى لا يؤكل لأنه لا يرى الحيوانات المفترسة جيدًا بالليل فلا يخرج إلا نهارًا، فأحيانًا تأتي ليلة مقمرة فيظن أن هذا هو النهار، فيخرج فيُؤكل، فيُقال الظبي هنا اغتر، يظن في الشيء غير حقيقته.

طبعًا معاني الغرور كثيرة في اللغة، الشاهد أنه يُخدع؛ يظن في الشيء فوق قيمته، وهو ليس كذلك، فيعجبه فيستمع إليه، هذه هي الخطورة انظر؛ أولًا: اغتر، ثانيًا: الميل العاطفي فقعد يستمع وهو سعيدًا؛ بعد أن كان يُقَلِّب ويشاهد ويضحك، بدأ يشاهد بتركيز- إصغاء- يسمع كل كلمة ويركز فيها، إصغاء مع ميل عاطفي. وانتبه؛ ما الذي يصغي؟ ليست الأذن بل الفؤاد{أفئدة} (الانعام ١١٣)، فهو يتغير من داخله ولا يشعر وهذه هي المصيبة.

يجب أن تعلم أن الذي يدخل للسمع والبصر يؤثر على القلب... من رأى منكم منكرًا فليغيره، لماذا؟ (تُعرَض الفتن على القلوب-الذي تشاهده هذا يُعرض على قلبك- عُودًا عُودًا فأيما قلب أنكرها نُكتت في قلبه نكتة بيضاء، وأيما قلب أُشربها نُكتت في قلبه نُكتة سوداء)[١٤]، أي هذا الذي تسمعه يُحدِث

[١٤] [عن حذيفة بن اليمان:] كُنّا عِنْدَ عُمَرَ، فقالَ: أيُّكُمْ سَمِعَ رَسولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الفِتَنَ؟ فقالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْناهُ، فقالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ في أهْلِهِ وجارِهِ؟ قالوا: أجَلْ، قالَ: تِلكَ تُكَفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدَقَةُ، ولَكِنْ أيُّكُمْ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يَذْكُرُ الَّتي تَمُوجُ مَوْجَ البَحْرِ؟ قالَ حُذَيْفَةُ: فأسْكَتَ القَوْمُ، فَقُلْتُ: أنا، قالَ: أنْتَ لِلَّهِ أبُوكَ. قالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: تُعْرَضُ الفِتَنُ على القُلُوبِ كالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وأيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتّى تَصِيرَ على قَلْبَيْنِ، على أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا كالكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ. قالَ حُذَيْفَةُ: وحَدَّثْتُهُ، أنَّ بيْنَكَ وبيْنَها بابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أنْ يُكْسَرَ، قالَ عُمَرُ: أكْسَرًا لا أبا لَكَ؟ فلوْ أنَّه فُتِحَ لَعَلَّهُ كانَ يُعادُ، قُلْتُ: لا بَلْ يُكْسَرُ، وحَدَّثْتُهُ أنَّ ذلكَ البابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ، أوْ يَمُوتُ حَدِيثًا لَيسَ بالأغالِيطِ. قالَ أبو خالِدٍ: فَقُلْتُ لِسَعْدٍ: يا أبا مالِكٍ، ما أسْوَدُ مُرْبادٍّ؟ قالَ: شِدَّةُ البَياضِ في سَوادٍ، قالَ: قُلْتُ: فَما الكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قالَ: مَنْكُوسًا. وفي رواية: لَمّا قَدِمَ حُذَيْفَةُ مِن عِندِ عُمَرَ جَلَسَ، فَحَدَّثَنا، فقالَ: إنَّ أمِيرَ المُؤْمِنِينَ أمْسِ لَمّا

تغيير في القلب. إذًا هذا الميل الذي يحدث ويزيد؛ في البداية كان قولاً ثم أصبح فؤادًا، كان في البداية تأثيرًا سمعياً الآن أصبح تأثيرًا قلبيًّا، عقيدته من الداخل تتغير. لذلك لماذا كان العلماء يتشددون في منع الجلوس إلى المبتدعة؟ ولا حتى مناظرتهم أمام الناس، خوفا من الميل القلبي أن يحدث، يغتر فيميل.

{ولتصغى} (الانعام ١١٣) أنا كنت أتوقع أن دائمًا الإصغاء مع الأذن فقط، لا بل أيضًا مع الافئدة والقلوب ... وردت مرتين هنا في سورة الأنعام وفي سورة التحريم؛ الصغو جاء مرتين في القرآن؛ {فقد صغت قلوبكما} (التحريم ٤)، وفي الأنعام جاءت {ولتصغى إليه أفئدة...} (الانعام ١١٣)

ما الفرق بين الفؤاد والقلب؟ يقولون الفئيد: هو اللحم المشوي، وقالوا إن هذا المعني فيه حرارة واتقاد وتقلب؛ لذلك قال الله -عز وجل- {كذلك لنثبت به فؤادك} (الفرقان ٣٢)،

الفؤاد يحتاج إلى تثبيت، هناك مشاعر متقدة إن لم يُثبَّت الإنسان يضيع. {وأصبح فؤاد أم موسي فارغا...} (القصص ١٠) الفؤاد يأتي مع المشاعر المشتعلة المتقدة، التي من الممكن أن يهلك صاحبها لو لم يُثبَّت، لولا أن ربطنا على قلبها، إذًا الربط هنا جاء مع قلب أم موسي.

فهذا الفؤاد بدلا أن يُصغى إلى القرآن كي يثبت؛

الكفار قالوا في سورة الفرقان: {لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة...} (الفرقان ٣٢)، {كذلك} (الفرقان ٣٢) أي: نزل القرآن منجمًا {لنثبت به فؤادك} (الفرقان ٣٢)، إذًا الفؤاد يحتاج إلى القرآن ليثبُت، الفؤاد لو ابتعد عن القرآن يضل، هنا جعلوا الفؤاد يصغي إلى زخرف القول؛ فَضَلَّ الفؤاد.

{ولتصغى إليه أفئدة الذين...} (الانعام ١١٣) ما الذي جعلهم يضلون {لا يؤمنون بالآخرة} (الانعام ١١٣) هذا هو السبب الذي جعلهم لا يختارون الاختيار الصحيح، {ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة} (الانعام ١١٣)، اغتر، بدأ يميل، بدأ قلبه يتغير، بدأ يرضى بهذا الكلام، بدأ {وليرضوه} (الانعام ١١٣)، أصبح راضيًا بعد أن كان يقول أنا ذاهب لأشاهد فقط أصبح راضيًا.

جَلَسْتُ إِلَيْهِ سَأَلَ أَصْحابَهُ، أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسولِ اللهِ ﷺ في الفِتَنِ؟ وساقَ الحَدِيثَ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي خالِدٍ، ولَمْ يَذْكُرْ تَفْسِيرَ أَبِي مالِكٍ لِقَوْلِهِ: مُرْبادًّا مُجَخِّيًا. وفي رواية: أَنَّ عُمَرَ قالَ: مَن يُحَدِّثُنا، أوْ قالَ: أيُّكُمْ يُحَدِّثُنا -وفيهم حُذَيْفَةُ- ما قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ في الفِتْنَةِ؟ قالَ حُذَيْفَةُ: أنا، وساقَ الحَدِيثَ كَنَحْوِ حَدِيثِ أَبِي مالِكٍ، عن رِبْعِيٍّ، وقالَ في الحَدِيثِ: قالَ حُذَيْفَةُ: حَدَّثَهُ حَدِيثًا لَيْسَ بالأغالِيطِ، وقالَ: يَعْنِي أنَّه عن رَسولِ اللهِ ﷺ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٤٤ • [صحيح]

آخر مرحلة أصبح يفعل مثلهم تمامًا، أصبح جنديًا من جنود إبليس، أصبح جنديًا من جنود الدجال، أكثر أتباع الدجال من اليهود والنساء؛ النساء التي تحب الزخرفة، واليهود أصحاب الفكر المادي.

إذًا هي أربع مراحل؛ يغتر فيذهب يسمع، فيصغي فيتغير قلبه، فيرضى، فيطبق.

{وليقترفوا ما هم مقترفون} (الانعام ١١٣) أي: وليقترف المصْغُون ما اقترف السادة؛ الشياطين، أي {وليقترفوا} (الانعام ١١٣) واو الفاعل هذه عائدة على {الذين لا يؤمنون بالآخرة} (الانعام ١١٣) الذين كانوا يسمعون {ما هم مقترفون} (الانعام ١١٣) الذين هم شياطين الإنس والجن، أصبحوا مثلهم تماماً، أصبحوا يقولون كلامهم، أصبح الدجال يقول لهم اذهبوا فيذهبون، افعلوا كذا فيفعلون، أصبح جنديًّا.

هذا التحول يخبرنا الله -عز وجل- كيف الإنسان يُزيَن له هذا الفساد، كيف يسب الله! بيَّن لك كيف يحدث ذلك، الموضوع لا يأتي في يوم وليلة، الإنسان يُسحَب ويؤخذ، بتعرضه إلى زخرف القول فيغتر به؛ فيُصغي إليه، فيرضاه، فيقترف نفس الفعل، هذا أمر خطير.

بعد ذلك {أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا} (الانعام ١١٨).

نكتفي بهذا القول. سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا